

خرجت برفقة مرشدتي (جاي) الذي ينحدر من بلاد (التبت) في زورق يعومُ بنا عند ضفة نهر (نوجيانغ)؛ للقيام بجولة نجمع فيها بعض بيض النوارس، جذب مسير انتباها صراخ قِرَدَةٌ مُفاجئ، قادم من جهةٍ مُنحدرٍ جبل القردة الواقع بمحاذة النهر، ومثيراً للذعر إلى حد ما. واستعنت بمنظاري لاستطلاع الأمر. وو المنحدر ومن بينها قرد أسميتها (ذا العباءة) قد وقف مقابل قردة ذات ذيل بنى اللون، منه، مطلقةً صوتاً حاداً تَنْشُدُ من خلاله العون، وقريباً منها جلس ملك القردة فوق حجر ضخم يعلو بمقدار العشرين متراً عن موقع القردين يصرخُ بعنف غضب، ويقطن في الغابات الصنوبرية القريبة من الطريق التأجي لجبل (جاوليجونغ)، وهو بين الحيوانات النادرة في الصين، أو حتى المئات. قضيت معظم وقتني في مراقبتها، شه السلطة عندها، بسبب وجهه المرقط باللون الأرجواني، وصدره الأبيض والرمادي. أما القردة ذات الذيل البنى والشعر اللماع، وقد لقيتهُ بذلك الاسم لشعره الكثيف السميكة، ويعُد الملك الثاني لتنصيب نفسه ملكاً عوضاً عنه، وكان شعر رأسه واقفاً فبدا تماماً كالثاج الملفت للأنظر، مما يوحى بأنه خلق ليكون ملكاً. رأيت (ذا العباءة السوداء) قد وجد خلية نحل معلقةً على أحد أغصان الأشجار. صارَ من المعروف أنَّ أيَّ ديج عسلاً يتوجب عليه تقديمِه إلى الملك أولاً هذا واجب على القردة، وامتياز يحظى به الملك. حتى يختبئ بل أخذه وقفز فوق الشجرة المقابلة للملك عوضاً عن ذلك وراح من الطبيعي أن تحمل وكرد غضباً وينتزع العسل لنفسه. وتلاشت ملامح الغضب والهياج، عندما شاهد (ذو العباءة السوداء) هذا بغية تسول بعض العسل منه، مما يدل وتجاهل ما تجنبَ لها هذا الموقف الذي يفيض بالإذلال، ثمَّ أخفض رأسه وراح يغفو بشكل متقطع، وببدأ جسده يرتاح بشدة مظهراً الأسى العميق الذي تغلغل في قلبه، هـ (الملك المجدور) كان حكيناً، لذا لن يُخاطر بفقدان تاجه بسبب بعض العسل التافه. إلا أنَّ ما يحدث الآن لا يمكن وصفه بإهانة عادية، فيما بالملك القردة الذي يتسم بالأنفة والغطرسة؟! وكما هو متوقع، صرخ (الملك المجدور) وقفز من على الصخرة مُعلناً بدءَ معركة الصراع للحفاظ على عرشه ورد اعتباره. سيموت أحد هذين القردين اليوم دون شك. جميع الدراسات والوثائق تؤكد حتمية هذه الحقيقة. بهدف الاستحواذ على العرش في مجموعة القردة، سيؤدي إلى موت القرد المنافس أو الملك القديم مباشرةً، لا حلَّ لهُ ابتعاد (ذو العباءة السوداء) عن الأنثى ذات الذيل وجرا. احتدم الاشتباك، وملاً الغبار الجو ممزوجاً بالصياح، والشعر، والدم، واللحم. وبعد عدة جولات، لم يتحلَّ (الملك المجدور) العجوز بالقوة البدنية التي تُضاهي (ذو العباءة السوداء)، ولكنه يتمتع بشجاعة لا تقل عنه على الإطلاق، لذلك عقد العزم على مجازفةأخيرة وحاسمة بدفع (ذو العباءة السوداء) للتذرُّج معه إلى المنحدر وإنزال كلَّهما وهما يتعاركان ويتبادلان العض. سقطا من ارتفاع مائة متر على ضفة النهر، وبالنسبة لهـ (الملك المجدور) فقد أصبَّ خصره وساقاها، فانتهز الفرصة للانقضاض على الملك بطريقة عنيفة ومفاجئة. وعجز عن الرد؛ فانسحب من المضمار يذرف دموعاً مثيرة للشفقة. أصبح الأمر جلياً، والانتصار أو الهزيمة أصبحا مسألة وقت، قام (ذو العباءة السوداء) بطرح (الملك المجدور أرضاً مرةً أخرى، ليُطلق صرخةً طويلةً . جلست باقي القردة على الصخور وبدأت جميعها بالصراخ احتفالاً بفوز (ذو العباءة السوداء)، وبلمح البصر، وأحاطت بهـ (الملك المجدور). مشهد كهذا يمكن وصفه بالمثل المعروف عندما تسقط الشاشة تکثر السكاكيين من حولها! يجب أن يُسارع (الملك المجدور) بالهرب، فقد تم عزله من قبل رعاياه، وعليه أن ينجو بنفسه من قبضتهم، وبدأ كسجين أشعَّ الشَّعْرُ مُحْضَبٍ بالدماء ومجطى بالتراب. احتشد عدد من القردة حول (ذو العباءة السوداء) للعق الدماء التي خلفتها المعركة على جسده، وأمر القردة بمهاجمة (الملك المجدور) ووفقاً للملاحظات التي دونتها خلال نصف شهر، ولا أحد من القردة تجرأ سابقاً على تحديه سوى (ذو العباءة السوداء). استنشاط غيظ جميع القردة باستثناء الأنثى (ذات الذيل البنى)، وصرخت غاضبةً وقد مما جعله يهرب مسرعاً. الجميع، فتعرض للضرب بشدة مرةً أخرى. عندما انشغلت الأنثى (ذات التقطاف الشاشة) تکثر الأنفاس، لكن أحد القردة الذكور (ذات الذيل البنى) بتناول الجوز في غابة الصنوبر قفزت وقد أخفض رأسه استعداداً لضربه على صدره بجانب (الملك المجدور). كنتُ أراقبها بمنظاري ورميه من أعلى الصخرة. وقبل ثلاثة أيام من بدء وهي تجلس سعيدةً بمحاذة (الملك المجدور) العراق، شاهدت القرد (ذو المؤخرة القرمزية) وراحت تتنفسه من البراغيث وتمشطُ شعرهَ أَغلقتْ بمنظاري يحضر طائراً قد اصطاده للتو لِيُقدمَه هدية جميع الأبواب في وجه الملك، فمزقَ الملك ساق الطائر وألقى ما أُن يقفز في النهر السريع التَّدَفُّقِ ذي التضاريس تبقى منه على الأرض، سارع القرد (ذو المؤخرة الحادة، ونفض الغبار عنه، ثم قدمه مَدْفَنْ الملوك! صحيح أنَّ القردة الصفراء تستطيع لمولاه من جديد. يا له من قرد متسلق وصل (الملك السباحة، والجراح التي فجوة فيه عَلَّهُ يتتجنب هجوم بقية القردة؛ ومن حظه أن القردة ذات الأذن البيضاء شاهدته، وأخبرت لم يعد يستطيع الصمود. وأراد أن يتوجه إلى الشاطئ، وما إنْ شرع بتسليق الشعب حتى أمر (ذو العباءة السوداء) فأجبروه على العودة إلى الماء مرةً أخرى اقترب (الملك المجدور) من منحدرٍ صخري، وأمسك بحجارة زلقة بكلتا ، راحتيه كان المنحدر شديداً جداً لم تجرؤ القردة على الاقتراب منه

خوفاً؛ منْ أَنْ يُشَدِّهَا مَعَهُ إِلَى الْمَوْتِ الْمَحْتُومِ، الْمَلِكُ الْمَجْدُورُ! وَقَدْ مَلَأَ الْحَقْدُ الْدَّفِينَ قُلُوبَهَا تَمَامًا، رَبِّما أَرَادَتْ أَنْ تُنْفِسَ عَنْ غَضْبِهَا الْمَكْتُومِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، أَوْ رَبِّما أَرَادَتْ إِثْبَاتَ الْوَلَاءِ لِمَلْكِهَا الْجَدِيدِ لِتَفْوزِ بِرَضَاهِ وَلِتَنَالَ حَظْوَةً عَنْهُ سَائِنِي (جَايِ): مَا سَبَبَ تَسْمِيَةَ هَذَا الْمَكَانِ بِمَدْفَنِ الْمَلُوكِ؟! فَكَنِي بِهَذَا الاسمِ الْمُشَوَّهِ. فَشَاطِئُ مَدْفَنِ الْمَلُوكِ يُشَيرُ إِلَى مَلُوكِ الْقَرْدَةِ، فَمَجْمُوعَاتُهَا تَمْتَلِكُ سَلْوَكًا يُخْتَلِفُ عَنِ الْبَشَرِ، وَيَتَكَفَّلُ بِاقِي أَفْرَادِ الْمَجْمُوعَةِ بِإِغْرَاقِ الْمَلِكِ عَاثِرَ الْحَظِّ بَعْدَ أَنْ تَمْ تَنْوِيْجَهُ مَلْكًا عَلَيْهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، مَا زَالَ (ذُو الْعَبَّاءَ السُّودَاءَ) بِرَفْقِ أَبْتَاعِهِ يُرَاقِبُ مِنْ مَوْقِعِهِ مُصْمِمًا عَلَى مَوْتِ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ)، الْأَنْثَى ذَاتِ الْذِيلِ الْبَنِيِّ أَنْثَى (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ الْمُفَضَّلَةِ)، هِيَ الْوَاحِدَةُ بَيْنِ مِنَاثِ الْقَرْدَةِ الصَّفَرَاءِ الَّتِي لَمْ تَشَارِكْ فِي ضَرْبِهِ، وَهِيَ تَشَدُّ شَعْرَهَا، وَتَطَلَّمُ عَلَى صَدْرِهَا، وَتَنْتَطِحُ الصَّخْرَ بِرَأْسِهَا وَكَانَ أَلْمًا عَظِيمًا يَأْكُلُ قَلْبَهَا. فَجَاءَ، اِنْقَضَتْ سَلْسَلَةُ مِنَ الْأَمْوَاجِ عَلَى (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ) وَغَطَّتْهُ كُلُّهُ، وَبَعْدَ مَضِيِّ بَعْضِ دَقَائِقٍ ظَهَرَ كَانَ يَلْتَقِطُ الْأَنْفَاسَ بِصَعْوَةٍ بِالْغَةِ وَعِينَاهُ مَغْشَيَّ عَلَيْهِمَا، التَّفَتَ الْقَرْدَةُ الْمَجْدُورُ لِيَلْقَى نَظَرَةً عَلَى الْقَرْدَةِ الْمُتَأْهِيَّةِ وَالْوَاقِفَةِ عَلَى صَخْرَهُ فِي السُّمْكَةِ. وَعَجَزَ عَنِ السَّبَاحةِ لِمَدَّةِ أَطْوَلِ، فَغَاصَ رَأْسُهُ فِي التَّهْرِ وَتَجَرَّعَ بَعْضُ الْمَيَاهِ، وَيَتَمَكَّنُ مِنَ الْعُومِ مَرَّةً أُخْرَى وَرَاحَ يَرْمِيْنَا بِنَظَرَاتِهِ الْبَائِسَةِ، ثُمَّ رَفَعَ أَحَدُ مَخَالِبِهِ مِنْ دَاخِلِ الْمَاءِ لِيُحِيِّنَا. فَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ تَلْوِيْحَهُ لَنَا بِمَخَالِبِهِ مَا هُوَ إِلَّا إِيمَاءَ لِطلبِ الْمَسَاعِدَةِ. إِنَّ لَمْ نَتَجَاهِلْهُ سَنَقْحَمْ أَنْفُسَنَا فِي مَشَكَّةِ مَا. جَذَبَتِ الْمَجَادِفَ مِنْ يَدِ (جَايِ) وَمَدَّتْهُ نَحْوِ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ)؛ فَهَسَّرَتِ الْقَرْدَةُ الْوَاقِفَةُ عَلَى الشَّعَابَ تَصْرُخُ بِشَرَاسَةٍ، وَأَطْلَقَ (ذُو الْعَبَّاءَ السُّودَاءَ) صَوْتًا غَاضِبًا فِي الصَّفَرَاءِ تَشَهِّرُ بِعَصْبَانِ الْتَّصْرِيفَاتِ الْمَغَالِيَّةِ فِي التَّهُورِ، كِإِصْرَارِهَا عَلَى الانتِقامِ مِنْ مَنْ يَسِيءُ لَهَا مَهْمَا طَالَ الزَّمْنُ. يُقَالُ أَنَّ أَحَدَ الْقَرْوَيْنِ أَمْسَكَ بِقَرْدَ صَغِيرٍ وَبِاعِهِ لِحْيَةِ الْحَيَوانَاتِ، وَسَمِعَتْ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَ وَكَلَّا سَلْكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ تُسْحَقُ سَيَّارَتَهُ بِحَجَارَةٍ تَلَقَّى مِنَ الْجَبَلِ! هَلْ أَنْتَكَهُ يَغْرِقُ؟ وَالْأَهْمُ أَنِّي لَسْتُ مِنْ أَنَا عَالِمٌ حَيَّانِ وَيَتَطَلَّبُ عَمَلِيَ الْمَرَاقِبَةُ بِمَوْضِعَيَّةِ، هَمِّمْتَ بِسَحْبِ الْمَجَادِفِ بِالْفَعْلِ وَلَكِنْ بِدَا الْأَمْرِ ثَقِيلًا جَدًّا عَلَى قَلْبِي، الْمُتَحَمِّسِينَ لِلْاحْتِفَالِ بِفَوْزِ الْمُنْتَصِرِ وَازْدَرَاءِ الْخَاسِرِ. وَكَذَلِكَ (الْأَنْثَى ذَاتِ الْذِيلِ الْبَنِيِّ)، وَتَكَوِينِي الْبَشَرِيِّ يَضْمِنُ مَفَاهِيمَ الْصَّوَابِ وَالْخَطَأِ، وَالْمَعَيْرَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْأَنْفَعَالَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ، وَتَقْدِيرِ مَعْنَى الْحَيَاةِ، وَلَا عَلَى الإِقْرَارِ بِالْتَّكَابِيِّ لِبَعْضِ الْحَمَاقَةِ عِنْدَمَا مَدَّتْ مَجَادِفَ الْقَارِبِ لِ(الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ) لِيَتَشَبَّثَ بِهِ، وَلَكِنْ التَّارِيخُ يَمْكُنُ إِعَادَةَ كِتَابَتِهِ، وَشَاطِئُ مَدْفَنِ الْمَلُوكِ يَمْكُنُ تَغْيِيرَ اسْمِهِ إِلَى شَاطِئِ نَجَاهَ الْمَلُوكِ وَفِي وَسْطِ مَوْجَةِ غَضْبِ الْقَرْدَةِ، اِنْتَشَلَتْ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ) مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ إِلَى قَارِبِ النَّجَاهِ، كَمَا كَانَ مُتَوْقِعًا، عَنْدَ سَفَحِ جَبَلِ الْقَرْدَةِ بِالْقَرْبِ مِنْ مَصْبَبِ نَهْرِ (نَوْ)، لَمْ تَكُنْ جَرَاحُ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ) خَطِيرَةً، عَنْدَمَا حَلَّ الْغَرُوبُ وَابْتَعَدْنَا عَنِ مَحَطَّةِ عَمَلِنَا بِمَقْدَارِ مَتَّأْ أوْ مَتَّيْنِ، سَمِعْنَا أَصْوَاتَ الْقَرْدَةِ وَصَرَخَاتِهَا فَهَرَعْنَا عَائِدِينَ إِلَى الْمَوْعِدِ لِنَجْدِ الْمَحَطَّةِ قَدْ سُرِّقَتْ بِالْكَاملِ، وَالْأَوَانِيِّ وَالْأَحْوَاضِ وَزَجاَجَاتِ الْمَلْحِ وَزَيْتِ الْطَّعَامِ وَالْخَلِ أَتَلَفَتْ جَمِيعَ كِتَبِي وَوَثَائِقِيِّ، وَلَحَافَ الْفَرَاشُ فِي حَالَةِ مَزْرِيَّةِ، وَمَمَّا زَادَ الْأَمْرَ سُوءًا بُولُ الْقَرْدَةِ لِقَدْ قَاسَيْ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الإِذَلَالِ وَالْاعْتِدَاءِ مِنْ خَصُومِهِ الْمُتَنَاثِرِيِّنِ فِي جَمِيعِ وَسْطِ الْقَفْصِ. اِنْتَابَتِنِي مَوْجَةُ عَارِمَةٍ مِنَ الْغَضَبِ، وَمَدَّتْ يَدِي وَمَا مَعْنِي عَنِ ذَلِكَ إِلَّا تَصْنِيفُهُ وَفَقَأَ لِقَوَانِينِ الْحَمَامِيَّةِ الْوَطَنِيَّةِ مِنْ فَأْفَعِ دُوَيْهَا وَرَائِهِ الْبَارُودِ الْمُنْبَعِثَةِ ثُمَّ اِنْسَحَبَ وَأَبْتَاعَهُ وَقَدْ تَرَامَتْ أَصْوَاتُهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ. أَطْلَقَتِ سَرَاحُ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ الْمُتَخَنِّنِ بِالْكَدَمَاتِ وَالضَّرَبِ، شَدِيدَةِ...) كَلْفَتِنِي عَمَلِيَّةَ سَطْوِ الْقَرْدَةِ تَلَكَ الْكَثِيرُ مِنَ النَّقْدِ لِلْتَّعْوِيْضِ عَنِ اِحْتِيَاجَاتِيِّ الْمُضْرُورِيَّةِ، الشَّائِكَةِ. فَتَوَقَّفَتْ عَنِ الْمَحاوِلَةِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَخلَّ عَنِ فَكْرَةِ الْاِنْتِقامِ، السُّودَانِيِّ. وَذَاتِ يَوْمٍ، وَلَقَدْ اَعْتَدْتُ فِي مَثَلِ هَذِهِ الرَّحَلَاتِ تَعلِيقَ حَقِيبَتِي عَلَى إِحْدَى الْأَشْجَارِ الصَّغِيرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي، وَفِي دَاخِلِ عُشِّ النَّسَرِ وَضَعَعَتْ سَحَلِيَّةً كَطْعَمٍ، مَا يَدِلُ عَلَى رَغْبَةِ الْأَمِّ فِي حَثِ فَرَاخَهَا الثَّلَاثَةِ عَلَى الْاعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي التَّقَاطِ الْطَّعَامِ، لَقَدْ جَذَبَنِي الْمَشَهُدُ كَثِيرًا فَهُوَ لِيُسِّ بِإِطَاعَمِ اِعْتِيَادِيِّ لِلصَّفَارِ بِلَكْنُ مَنْجِذِيًّا تَمَامًا لِلْمَشَهُدِ، وَفَجَاءَ سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ الْمُصَادِرِيِّةِ مِنَ الشَّجَرَةِ الصَّغِيرَةِ قَرِيبِيِّ، رَفَعْتُ بَصَرِيِّ لِأَرَى الْقَرْدَ الْبَغِيْضِ الْحَاقِدِ (ذُو الْعَبَّاءَ السُّودَاءَ) قَدْ قَفَزَ مِنْ إِحْدَى الصَّخْرَاتِ إِلَى الشَّجَرَةِ وَنَزَلَ عَلَيْهَا أَغْصَانَهَا لِيَأْخُذَ حَقِيبَتِيِّ الْمَعْلَقَةِ هَنَاكَ، بَيْنَمَا بَادَرَ (جَايِ) بِرَدِ فَعْلِ سَرِيعٍ فَفَقَرَ مَحَاوِلًا إِيْقَافَهُ لَكَنْ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، فَبَلَمَ الْبَصَرِ، تَعَلَّقَ الْقَرْدُ بِالشَّجَرَةِ رَأْسًا عَلَى عَقْبِ وَخَطْفِ الْحَقِيبَةِ فِي غَمْضَةِ عَيْنِهِ وَقَامَ بَعْدَهَا بِوَبَثَةِ رَشِيقَةِ عَادَتْ بِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ لِيَخْتَفِي عَلَى الْفَوْرِ دَاخِلِ الْغَابَةِ. مِنَ الْمُؤْسَفِ أَنْ يَكُونَ لَصَا. يَوْجِدَ آلَهُ تَصْوِيرَ باهْتَهَةِ الْثَّمَنِ دَاخِلَ حَقِيبَتِيِّ الْمُسْرَوَقَةِ، وَبَعْضُ الْطَّعَامِ وَزَجاَجَةَ مِنَ الْمَاءِ، فَخَرَجَتْ مِنِ الْخِيمَةِ وَإِذْ بِهِ (ذِي الْعَبَّاءَ السُّودَاءِ) يَقْفُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى بَعْدِ عَشَرِينِ أَوْ ثَلَاثِينِ مَتَّأْ عَنِ مَوْقِعِهِ الْعَمَليِّ، وَلَكِنْ مَلَامِحَهُ لَمْ تُشَرِّعْ إِلَى الْاعْتِدَادِ أَوِ الْاسْتَفْزَارِ، بَلْ كَانَ الْمَرَارَةُ تَعْلُوُ وَجْهَهُ وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانَ بِالْعَاطِفَةِ، وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنَا (ذِي الْعَبَّاءَ السُّودَاءَ) عَلَيْهِ حَتَّى اِنْتَصَبَ شَعْرَ رَأْسِهِ بِحَدَّهُ، وَأَمْسَكَ قَدْمِيَ بِقُوَّةِ مَرْتَجَفِ الْجَسَدِ. يَا لَهُ مِنْ قَرْدٍ ذَكِيٍّ وَوَضِيعٍ! يَمْكُنُكَ إِتَّمَانَ الصَّفَقَةِ مَعَهُ، اللَّهُ يَعِيشُ طَوِيلًا. وَالتَّأْمَتَ الْجَرَاحُ الَّتِي أَنْتَخَنَتْ جَسْدَهُ تَمَامًا لَكَنَّ عَلَةَ قَلْبِهِ لَا يَمْكُنُ شَفَاؤُهَا. فِي كُلِّ يَوْمٍ، يُكَوِّرُ نَفْسَهُ فِي زَاوِيَّةِ الْخِيمَةِ سَاكِنًا دُونَ حَرَكَ، وَتَلَاشَى بِرِيقُ عَيْنِيهِ وَحَيَاتِهِ مَاضِيَّهُ نَحْوِ النَّهَايَا، وَقَدْ زَالَتْ عَنْهُ فَخَاطَبَتْ نَفْسِي هُلْ يُطَاوِيْنِي قَلْبِي عَلَى مَقَايِضَةِ (الْمَلِكِ الْمَجْدُورِ) بِحَقِيبَتِيِّ يَا تُرَى؟ إِنْ فَعَلَتْ،

العباء السوداء) وحش مختل بامتياز، ولن أعقد أيّ وكتعبير عن رفضي للإذعان لإغراء مقايضة (ذى العباءة السوداء) صرخت ورميته بحجر بحجم قبضة اليد، لكنه كان كافياً لإيضاح مقصدي له، وكان ضربة قاضية قد نالت منه بالفعل. ولكن يتوجب علينا توثيق الحذر عند خروجنا منه. أجابني (جاي) بوجه عبوس وصوت منخفض مُتأملاً السماء الملبدة بالغيوم: أنا لا أخشى ذا العباءة السوداء) ولكنني قلق من تورط الفوضى تسود بين مجموعة القردة الصفراء لسوء الحظ لقد كان (جاي) على حق في تلك الليلة، أعتقد بأنّ نمراً أو ذئباً مفترساً قد انقض علينا. استجابة (الملك المجدور) للأصوات قد أثارت دهشتنا بالفعل، فلقد وثب مصدرًا صوتًا منخفضًا وصار جسده يرتجف من شدة التوتر، يبدو بأنه مدرك لما يحدث للقردة وأراد أن يشرح لي الأمر، عند بزوغ الفجر، نهضنا أنا (جاي) بسرعة واغتنسلنا من جدول المياه، كان نهاراً يتسم بنسمات عليلة وصفاء تام، تمكناً من ملاحظة حركات القردة على بعد خمسين متراً أو ستين دون الحاجة من الواضح أن القردة الصفراء لم تتم طوال الليل، حتى أن الدماء احتقنت في عيونها، وأعصابها متورّة للغاية، ولاحظت أن بعضها مُصاب وقد خُدشت فروة رأسه، وأخر اقتلع شعر رقبته وثالث كان يمشي بصعوبة إثر إصابة بالغة في قدمه، على غير العادة، لم يعد (ذو العباءة السوداء) يمتاز بتأنيد القردة كملك لها، بل انقسمت إلى مجموعات صغيرة عوضاً عن ذلك وجلست بجانبه (الأنثى ذات الأذن البيضاء)، بالإضافة إلى قرد مسن ذي مكانة متدنية بين القردة، مَنْحَنِي مشهد هؤلاء الثلاثة إحساساً بسقوط الملك بعد أن انقض أطلق (ذو العباءة السوداء) صوتاً خافتًا أشبه بالاستجاء، وتلاشت هيبيته وكبرياته، بينما واصل البقية الاهتمام بشؤونهم الخاصة غير مبالين به. قفز قرد من شجرة صنوبر صغيرة صوب الحجر الذي احتله (ذو العباءة السوداء) وراح يطلق صوتاً ساخراً، إنَّ القرد (ذو المؤخرة الحمراء!) وعلى الرغم من خبرتي الضئيلة في لغة الجسد الخاصة بالقردة، وقفز من على الحجر وانقض على القرد ذي المؤخرة الحمراء، فتشابكاً والتفا على بعضهما بلمح البصر فتشابكاً متعانقين وهم يلهثان بنفس ثقيل. وفي تلك اللحظة، ثم رفس القرد (ذا) المؤخرة الحمراء) لينضم بعد ذلك سبعة قردة أو ثمانية إلى ذلك الصراع. أن لا أحد من هؤلاء الذكور يتبع لـ (ذى العباءة السوداء) أو (ذى المؤخرة الحمراء)، بل كان كل منها يُقاتل لفرض وجوده، فتعاضد (ذو العباءة السوداء) و(ذو المؤخرة الحمراء) على تهشيم وجه القرد الأصلع ولكن لبعض الوقت. ثم اندلع صراع بين جميع قردة المجموعة. كانت الفوضى عارمة، خاطبت (جاي) : هل أصيّبت تلك القردة بالجنون؟! نشببت مثل هذه الفوضى العارمة بين أفراد المجموعة قبل خمس سنوات. أجاب (جاي) وهو يعود بذاكرته إلى الوراء: لقد قام أحد الصيّارين بقتل ملكها في ذلك الوقت. وبعد أن بات منصبه شاغراً رغب كل ذكر منها أن يصبح ملكاً ، ونتج عن ذلك قتال عنيف دام لنصف عام مات خلاله العديد من الذكور، وانخفض بذلك عدد أفراد المجموعة إلى حوالي خمسين بعد أن كان يصل لمئة قرد . ومن ثم قام الملك المجدور بخوض العشرات من المعارك الشرسة، وبانتصاره أصبح ملكاً فاستتب الأمن وأخذت المجموعة تستعيد قوتها واستقرارها. ولكنَّ الذي صعبَ علىَ فهمه : لماذا بدأت الخلافاتُ منذ استيلاء (ذى العباءة السوداء) على العرش دونَ فهناك دورة زمنية لتغيير العرش عند القردة الصفراء تتراوح بين خمس إلى سنتين إنْ لم يحدث أمر طارئ بكل تأكيد. فعمُر القرد الأصفر يصل إلى عشرين عاماً تقريباً، ويتراوح سن البلوغ بين العاشرة والخامسة عشرة، أجسادها في ذروتها، وتشتعل الرغبة لديها للاستحواذ على السلطة، ووفقاً لما أدرى به بعض علماء الحيوان، حينها سيبدأ جسده يضعفُ وطاقة تحبُّه وسيطمع باقي الذكور بمكانته هناك تفسير قد فقد هيبيته، ففُقدت عين القرد الأصلع من قبل أحد الذكور، ويصرخ ويقفز ويركل بأسي، ربما فأطلق الصغير صوت أبين حاد وهو من جُرف عال وبطنهُ تُقابل السماء لترتطم مؤخرة رأسه بحجر، جحظت عيناً أمه ذات السامة الحمراء بين حاجبيها وانقضت على القرد الأصلع وأمسكت رأسه بمخليبيها ونالت أستانها من لحمه عضاً ومضغاً بعد أن أصابها الجنون، وانضمت إليها قردان أيضاً وغرستا مخالبها في رأس القرد الأصلع، وإنهالت الإناث الثلاثة عليه بالرفس والجر بحقن شديد، ففُقدت عينه الأخرى وانطفأ نور بصره وهرب متربحاً ليسقط من الجرف مطلقاً صرحةً تُمزق الفؤاد تلها صوت ارتطام بالأرض قد وصل لمسامع الجميع. سارعت كل الإناث للاختباء في الكهوف بين الحجارة معاقةً صغارها بحرص شديد، وتوقف الذكور عن العراك فجأةً. ربما الموتُ المُباغت قد سبب الصدمة لها، أو أنَّ الإنهاك نال من أجسادها. الفينة والأخرى تُسمع صرخةً أو اثنان. ومن الواضح أنها سئمت وأصيّبت بخيبة الأمل من هذا الجو المضطرب الذي عصف بعائلة القردة، لمَ لم يحدث مثل هذا الانقسام الخطير سابقاً بين مجموعة القردة؟ وكيف يمكنُ لي أنْ أُعيَّد الحياة الهداء والمسالمة لهذه القردة الثمينة؟ فأنا عالم حيوان وتقع على عاتقي مسؤولية إجاد الحل الأمثل لها. اللقاء بـ (الملك المجدور) لا اعتدُ أخذ قيلولة في وقت الظهيرة، حتى هدر جدار السيّاج الذي أقمته خارج المُخيّم بأصوات متواالية على نحو مفاجئ، رفعت ستار خيمي فتجلّى أمامي قرد أصفر تحيل الجسد أسود الشَّعْرِ ذو ذيل فريد من نوعه يقف إلى جانب السيّاج: يا إلهي ! إنَّها (الأنثى ذات الذيل البنِي)! كنت متفاجئاً

لقدومها إلى هنا في وضح النهار. خسر (الملك المجدور) سلطته منذ مدة طويلة، وصار يعيش الآن في مخيم للبشر بمساعدة مني بعد أنْ فقد أيَّ فرصة لاستعادة ملكه، وما إن يعلمُ (ذو العباءة السوداء) بأمرها لن يتربَّد في نفيها خارج المجموعة أو ينزل بها عقوبة الموت أنا معجب حقاً بشجاعتها وإندامها على مقابلة الملك المجدور الذي خصته بحنانها ولقد أثر ذلك في قلبي كثيراً. حَرَصَتِ (الأنثى ذات الذيل البني) على اختيار الأَيَّام التي يسوء فيها الطقس للفاء ، وذلك خلال الزيارات الثلاثة الأولى فقط. ففي أول مرة، كانت الأمطار تهطل بغزارة، أما الليلة الثانية، وجاءت في الثالثة عندما كان الصَّبابُ يُغطِّي خيوط اعتماد الابتعاد عن السياج خلال هذه المواعيد والاختفاء بين الأدغال في مكان آمن يقع خلف موقع عملنا بالتحديد مطلاً صرختين على نحو غامض، ويُبادر بوثبة مفاجئة يخرجُ فيها من زاوية مخيمي ويركض باتجاه السياج، ولا يُطيقُ صبراً حتى يستكمل الجسر المتحرك دورته منخفضاً وأكون قد فتحت له السياج، ويقبض على الحبل ويقفز من فوق جدول الحماية.وها هي اليوم قادمة في وَضَحِ النهار، بل راحت تهز السياج دون مبالاة، كان موقفاً فريداً إلى حد ما، وبقيت (الملك المجدور) تُحدِّقُ بها مذهولين لفترة طويلة ثم قُمتُ بفتح السياج وإنزال الجسر المتحرك ولا زال (الملك المجدور) مُتسمراً بجانبي، فَرَبَّتْ على كتفه قائلاً: اذهب يا صديقي العجوز، لا تخذلها. فأفلح تشجيعي له وصرح أخيراً وسار عبر الجسر المتحرك حتى وصل إليها، واندفعا صوب الأدغال واحتفيَا داخل الغابة الخضراء المشمسة. استناداً إلى خبرتي السابقة، فلن يعود الملك المجدور إلا بعد ساعتين، فتحت كتاباً مُترجمًا حديثاً وَطَهَقْتُ أقرأه وأنا مستلق على السرير، الراقصة من تأليف فجنبني أحد أسطر الكتاب ونصه: "في مفهوم القردة الصفراء المقاتلة،" بدأ قلبي يتحقق بسرعة عند قراءتي لتلك الكلمات؛ فقد لمع وميض في ذهني لحل تلك الفوضى عند مجموعة القردة.